لسانيات النص- آفاق التطور ومجالات التطبيق

ملخص

مثّل التطور الكبير الذي شهدته لسانيات النص تغييرا جذريا في مجال الدراسة اللغوية، حيث عرف الدارسون شكلا جديدا في التعامل مع النصوص، فبالإضافة إلى الاهتمام بالمستويات اللغوية (الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية)، صار من الضروري الاهتمام– أيضا- بالاتصال اللغوي وأطرافه (المرسل ، المرسل إليه والرسالة...) والسياقات وأنواعها (ثقافية، اجتماعية، نفسية ...)، والتفاعل النصي وأشكاله، وبكل الحقائق والعوامل الكامنة وراء لغة النص.

فالنصوص من منظور المنهج اللساني النصي تتطلب دراية واسعة بالمستويات اللغوية التي تشكل صلب البحث النصي وغير اللغوية التي تتشكل من خلفياتنا المعرفية، ولا يجوز بأي حال من الأحوال الفصل بين هذه المستويات، حيث صارت مختلف الميادين والاختصاصات(الأدب،علم النفس،علم الاجتماع، والترجمة) تفرض نفسها في إنتاج النصوص وتحليلها لتدخل بذلك ضمن دوائر اهتمامات لسانيات النص، بعدما أقبل الكثير من العلماء والدارسين إلى إحداث توافق بين نظرية لسانية وأخرى غير لسانية، حيث أن الدراسة العلمية الدقيقة هي نتاج الجمع بين كل تلك المعارف لتصبح بذلك لسانيات النص علما متداخل الاختصاصات متعدد المنابع.

وعليه فما هي يا ترى أهم المجالات و الميادين المعرفية التي أعلنت لسانيات النص الحوار معها ؟

أ. ثليثة بليردوح

قسم العربية
جامعة أم البواقي
الجزائر

Résumé

La grande évolution qu'a connue la linguistique textuelle représente un changement radical dans le domaine des études linguistiques, ce qui a permis aux chercheurs de découvrir un nouveau style de traitement des textes.

مقدمة

لقد استطاعت لسانيات النص بفضل نظريتها الشمولية أن تحرر النصوص من دائرة التقوقع والجمود بعد أن أعلنت الحوار مع مختلف الميادين والعلوم ، فلم يعد النص مجرد توال من الجمل تدرس

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر 2015.

Outre la préoccupation des différents niveaux linguistiques (phonologique, synthétique, sémantique et, morphologique), il est nécessaire de donner un intérêt majeur à la communication linguistique et ses constituants (expéditeur, destinataire, et correspondance), ainsi que les différents contextes (culturel, psychologique et sociologique) et toutes les formes de l'interactivité textuelle.

De point de vue méthodologique et linguistique, les textes exigent un savoir profond des niveaux linguistiques qui forment la base de la recherche textuelle. Les disciplines différentes (littérature, psychologie, sociologie, et traduction) s'imposent dans la production des textes et son analyse, faisant partie des préoccupations de linguistique textuelle. Lorsqu'un grand nombre de scientifiques et chercheurs vont faire un consensus entre la théorie linguistique et d'autres non – linguistiques.

منفصلة ، كما لم تعد اللغة مجرد خزان كبير لجمل متفرقة لا رابطة بينها.

حيث أصبح الاهتمام بعوالم السياق والدلالة وبالاستراتيجيات التركيبية والتنظيمية المستعملة في إنتاج النصوص و عملية تلقيها من أولى اهتمامات البحث النصي ، لتتمكن بذلك لسانيات النص من النفاذ إلى قلب الكثير من المعارف الإنسانية ناسفة كل الحدود المرتسمة بينها وبين غيرها من الميادين و العلوم

أ- <u>لسانيات النص وميدان تحليل الأدب:</u>

درس الأدب انطلاقا من توجهات كثيرة مختلفة معرفيا ومنهجيا، حاولت جميعها، إثبات قدرتها – دون غيرها – على مجابهة تعنته واستنطاق نصوصه المتمنعة ولكن عبثا كانت تحاول، حيث ركز أصحابها على خارجيات النصوص مغفلين- في مقابل ذلك – الطريقة التي إنبنت بها، كما جعلوا حكمهم عليها(النصوص) من خلال بنيتها اللغوية فقط، متناسين العوامل النفسية والاجتماعية والتاريخية أثناء معالجتها،إلى أن حان عقد السبعينيات، فأسس فان دايك علما جديدا(لسانيات النص-linguistique textuelle) استوحى أدواته من المعارف الجديدة مثل السيميائيات واللسانيات والنحو التوليدي ،التي جاءت بمبادئ جديدة في التعامل مع الأثر الأدبي، فعالج النصوص في حدودها الانطولوجية وفق ممارسة تجريبية علمية، جاعلا من الأدب موضوعا للتحليل العلمي مثله مثل أي ظاهرة اجتماعية أخرى، الأمر الذي استرعى انتباه الكثيرين و دفعهم إلى التساؤل عن الفائدة والأهمية الكبرى التي يمكن أن تجلبها لسانيات النص - باعتبارها "الدراسة العلمية للغة"- لميدان تحليل الأدب.

تتمتع لسانيات النص بقدر كبير من الدقة والصرامة، وعليه يجب أن توكل إليها مهمة القيادة في عملية تحليل ودراسة النصوص ، وبهذا الصدد يقول فاينرش: "إنني أطمح إلى لسانيات أدبية، وهذا الكلام لا يعني أن تضع اللسانيات نفسها بالكامل في خدمة التأويل الأدبي، ولا أن تنصاع الدراسات الأدبية لمناهج اللسانيات، ولكن

تطبيق بعض المناهج اللسانية على نصوص أدبية كانت له نتائجه الجيدة، إذ سمحت هذه التطبيقات ببروز مظاهر مهمة جدا للسانيين وللمختصين في الأدب على حد سواء". (1)

فقد وجد محلّلو الأدب آن قراءاتهم تتم بصورة أفضل خلال استثمار المعرفة اللسانية، التي مكنتهم من تجاوز كثير من الأحكام القيمية غير المعللة تعليلا علميا دقيقا، حيث أصبحت الانجازات المحققة على صعيد الدرس اللساني واقعا مفروضا لا يمكن بأي حال تجاوزه. فقد أعطت الدراسة اللسانية موضوعية علمية من خلال منهجيتها البراهينية التي استمدها من النموذج الرياضياتي المنطقي. (2)

فصار الحكم على النصوص في الدراسة اللسانية النصية "يتم من خلال وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح المظاهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة، كما يتم تحليلها في العلوم المتنوعة ". (3)

ويعتبر فان دايك- المؤسس الحقيقي لعلم النص والذي استطاع أن يخرج دراسة الأدب من التأمل الفلسفي.والتطبيقات الفجة إلى التجريب العلمي – " أن نشأة البحث اللساني النصي وتطوره يصب في صالح الأدب، والعلاقة بينهما جد طبيعية ومنطقية بل وضرورية، فإذا كان الأدب هو مجموعة من النصوص المنتظمة داخل بنية فنية معينة، وكل نص-كعنصر مستقل- يستمد شرعيته من الكل الذي هو الأدب فان لسانيات النص هي الدراسة العلمية للنصوص الأدبية وغير الأدبية، حيث تتخذ منها مجالا لنشاطها، وتقوم بتفكيكها، كما تعيد صياغة المعاني المفقودة "المسكوت عنها" واستنباط القوانين العامة للنصوص التي من خلالها نستطيع الحكم على اتساقها وانسجامها". (4)

لذا فالأدب مجال من المجالات التي تبحث في فلكها لسانيات النص بل و الأقرب إليها باعتبار أن الأدب نسيج لغوي، ومادته الأساسية هي اللغة .

يقول تودروف(Todorov) عن علاقة الأدب باللغة: "إن الأدب في علاقته باللغة باعتبارها أداة له يمثل معها نظاما مزدوجا، فهو نظام لكنه نظام ثانوي مادام يستعمل نظاما موجودا قبله هو اللغة". (5)

لذا فالأدب لا يعدو كونه في الواقع ممارسة لغوية و عليه فمن غير المعقول أن لا يكون المجال الأمثل للدراسة اللسانية النصية، التي ترتكز أولى خطواتها في تحليل النصوص على الجانب الشكلي (اللغوي) المتمظهر على السطح- دون إهمالها بالطبع للجوانب الأخرى الدلالية والسياقية والتداولية، فكل تحليل للنص مهما كان نوعه يجب أن لا يهمل المعطيات اللغوية وإلا ظل مجرد تجربة تفتقر إلى مشروعية الوجود ، فما بالك بعلم وجد أصلا ليختص بدراسة اللغة (علم اللغة النصي)، وعليه فليس الأدب مجموعة من النصوص فحسب، ولكنه أيضا مجموعة من الممارسات النصانية، التي فرضتها كثير من الاعتبارات...

إن هذا الوضع جعل لسانيات النص تقترب من أعرق جهاز نقدي عرفه الأدب وأكثرها تماسكا ونعني بذلك البلاغة ،التي أثبتت مرونتها في التعامل مع النصوص الأدبية المختلفة واستطاعت بجدارة الانتقال عبر مختلف الأزمنة والأمكنة محملة بثقل الأصالة وخفة الحداثة.

فما هي علاقة لسانية النص بالبلاغة ؟

ب- <u>لسانيات النص و ميدان البلاغة:</u>

بعد التطور الكبير الذي شهدته لسانيات النص، استطاعت ان تكون الممثل الحديث للبلاغة التي بدأت تفقد تدريجيا مشروعيتها التخطيطية، واتجاهاتها الشكلية فصار لزاما أن تعدل من مواقفها تجاه النصوص، بحيث تتحول من الطابع المعياري المتعالي إلى اتخاذ طابع تحليلي وصفي أكثر دقة ومرونة، ولن يكون لها ذلك إلا بتخليها عن مفاهيمها العتيقة. (6) واعتناقها مفاهيم جديدة قادرة على فك طوق الدراسة القديمة التي باتت تضيق الخناق حولها، وتمنعها من مواكبة التحولات الكبيرة التي شهدتها العلوم الإنسانية عامة، والأدبية واللغوية خاصة، الأمر الذي دفع بالباحثين في علم البلاغة إلى ضرورة النهوض ببلاغة جديدة في نفس هذه الآونة، كان فان دايك قد بشر في بحوثه عن علم اللغة النصي(لسانيات النص)، هذا العلم الجديد الذي يعود فيجمع شتات الجزيئات المبعثرة في نظام عالمي شامل متداخل الاختصاصات، لا يرتبط بالخصائص المحلية للغات والآداب بقدر ما يهدف إلى استثمار نتائج البحوث في العلوم الإنسانية لتأسيس إنسانيات جديدة قادرة على تجاوز مأزق الثقافة المتشظية. (7)

ولكي يصبح هذا العلم أداة صالحة لتناول مختلف النصوص بمستوياتها المتعددة فإن مؤسسه دعا إلى اندماج البلاغة في لسانيات النص لإعطائها طابعا شموليا تبيح لها تشكيل منظومة من الإجراءات المنهجية القابلة للتطبيق على المستوى التداولي (8) شريطة ألا تنتقل البلاغة إلى لسانيات النص بمفاهيمها القديمة، لأن هذا يؤدي إلى السقوط في التكرار، بل يجب إعطاؤها أبعادا جديدة، وتوسيعها إلى مجالات جديدة لم تكن من مجال اختصاصها في الماضي.

مما دفع بالكثير من العلماء في ثقافات مختلفة في آن واحد إلى إعادة قراءة تراثهم البلاغي، فهناك من يعيد قراءة البلاغة ليجعل منها علما وصفيا بحتا، في مقابل اتجاه آخر يعيد قراءتها ليقيم منها علما توليديا يبحث في كيفية الإنتاج الخلاق للنصوص، مما يفضي بها عندئذ إلى أن تصب في علم النص. (9)

لذا فتحول البلاغة الجديدة في الواقع إلى علم النص، يرتبط بمدى قدرة البلاغة في الثقافات المختلفة على تكوين نموذج جديد لإنتاج الخطاب بكل أنماطه، دون الاقتصار على نوع واحد منه كما كانت تفعل البلاغة القديمة.

وهناك عدة أسباب وعوامل تجعل من هذا الطرح صائبا أهمها:

- إن البلاغة كمنظومة من المفاهيم، تمثل جهازا نقديا بإمكانه تناول النصوص الأدبية المختلفة، وذلك من خلال تحديدها لوظائفها وعناصرها الشكلية .
- تستطيع البلاغة الجديدة في مختلف تجلياتها أن تقوم بدور الوسيط لتداخل الاختصاصات في العلوم الإنسانية الحديثة، وأن تجمع بينها مثلما كانت تفعل منذ البلاغة الأرسطية حينما جمعت بين علوم المنطق والأخلاق والفلسفة والشعر، ومثلما تداخلت فيها عند العرب علوم المتكلمين واللغويين والفلاسفة والأدباء.
- تعني البلاغة بوظائف الاتصال وما تشمله من دور للمرسل والمتلقي، و طبيعة الرسالة.... ووسائل الإقناع وما تشمله من أفعال للكلام وهذا ما تركز عليه الدراسات النفسية والتداولية .
- إن التصور الجديد للبلاغة و انتقالها من كيفيات إنتاج النصوص إلى تحليلها، يجعلها تندرج ضمن لسانيات النص، يقول هنريش بليث : "... إن البلاغة التي يساهم المؤلف في بنائها هي علم النص بمعناه الحديث -كما تبلور عند رواد البحث فيه-". (10)

هذا ما أقره فان دايك دون أي تردد حينما قال: " إن البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص". (11)

وبذلك تكون لسانيات النص، قد حققت انعطافا كبيرا نحو أفق منهجي مخالف لما كان سائدا في الماضي، خاصة عندما نجدها تخطت ميدان العلوم الأدبية واللغوية إلى علوم أخرى أبت إلا الخوض في غمارها، ودخول مجالاتها عن طريق ما تفرزه هذه الأخيرة من نصوص،حيث تعد النصوص و(سياقاتها) موضوعا لبحوث متعددة وفي أكثر من علم: علم النفس، علم الاجتماع الأنثروبولوجيا. (12)

فقد بسطت لسانيات النص شراعها على هذه العلوم و غيرها مما أفضى إلى وجود نقاط تماس بينها، هادفة من وراء ذلك إلى خلق دراسة عبر تخصصية و من بين هذه العلوم – على سبيل الذكر لا الحصر-.

ج- <u>لسانيات النص و علم النفس:</u>

ترتبط لسانيات النص ارتباطا وثيقا بعلم النفس حيث يعد هذا الأخير أكثر التخصصات تداخلا و تشابكا معها، إذ يتقاطعان في نقاط كثيرة، أهمها تلك المتعلقة بمستخدمي اللغة (منتجين أو متلقين)

ومن أهم الخطوات التي استطاع علم النفس أن يسهم فيها بشكل مباشر، تلك الذي أخذ يحلل فيها (آليات التلقي والتذكر وتكوين الأخيلة بالمعطيات الحسية وطرق اكتساب اللغة وتمثلها معرفيا، وذلك باستخدام المعلومات الدقيقة عن مستويات الوعي وطبيعة الأبنية اللغوية المماثلة في اللاشعور، واكتشاف قوانين التداعي وأدوات الترميز والنقل والتكثيف، ودلالات الخطأ، وعوامل الكبت بمستوياتها المختلفة، وكل ما يتصل بحياة اللغة لدى الإنسان في المجتمع). (13)

فكل تلك القضايا و غيرها تعد أساسية و مهمة بالنسبة للسانيات النص، حيث تساعد على إيضاح كيفية إمكان مستخدم لغة ما من فهم النصوص-التي قد تكون معقدة أحيانا- واستخراج معلومات منها ثم تخزينها في الذاكرة ليعيد إنتاجها مرة أخرى .

فكما هو معروف أن عملية تخزين المعلومات عند الإنسان تتم وفق نوعين من الذاكرة: ذاكرة طويلة المدى و ذاكرة قصيرة المدى.

فالذاكرة طويلة المدى تعمل على تخزين المعلومات من الأبنية الظاهرة (السطحية) كاحتفاظنا ببعض الكلمات من إحدى الأغنيات أو من أبيات شعرية سمعناها من شخص ما، حتى وإن لم نع دلالتها ،فقط لأن إيقاعها الموسيقي أعجبنا وأثر فينا، كما هو الحال عند بعض التلاميذ – في مراحل تعلمهم الأولى – فقد أثبتت الدراسات أن الكثير منهم يحفظ نصوصا شعرية أو مقطوعات من أوبرات عالمية، وتحتفظ بها ذاكرتهم لفترة طويلة من الزمن دون أن يعرفوا معناها إلا بعد مراحل متقدمة من تعلمهم أي بعد نضج فكري وتعليمي .

وقد تظل هذه المعلومات (الشكلية) مخزونة داخل ذاكرتنا، وإلى أن تتآكل وتنمحي آخذة في التضاؤل شيئا فشيئا، لتختفي تماما بعد أن تنطبع فوقها معلومات حديثة.

أما الذاكرة قصيرة المدى فقد تحتفظ ببعض البيانات الدلالية، و لكن خلال مدى زمني قصير، ويتم ذلك إذا ركز المتلقي على المعلومات التي يستقبلها، ويحاول فهمها، فهذا الانتباه يؤدي إلى الانتقال آليا إلى ما يسمى بمخزن المدى القصير، حيث تصبح هذه المعلومات في متناول المتلقي لفترة يسيرة، يستطيع أن يفهم بها بعض الجمل أو المتتاليات النصية.(14)

غير أن التطور الذي لحق بعلم النفس في السنوات الأخيرة أثبت وجود أنواع أخرى من الذاكرة وهي:

❖ **الذاكرة الدلالية:**

تم اكتشاف الذاكرة الدلالية من قبل علماء النفس في فترة متأخرة عن اكتشافهم للذاكرة طويلة المدى وقصيرة المدى، حيث أثبتت الأبحاث المعلمية أن المادة الشفوية اللغوية يتمثلها الفرد بمعناها، وليس بالنطق أو الشكل فعندما نقرأ صحيفة مثلا فإننا نلخص الكلمات إلى أفكار ونحتفظ بهذه الأفكار والقليل منا من يتذكر حروف الكلمات أو نصها، فالمسؤول الأول عن حفظ هذه المعلومات هي الذاكرة الدلالية.

الذاكرة الثانوية:

يقوم هذا النوع من الذاكرة بتسجيل مجموعة من الملامح الموقعية للمعلومات، مثل أين تم تلقيها؟ و كيف و متى؟ وبأي شكل فهمناها؟ ومن لقننا إياها؟ ولهذا فإننا لن نتذكر بصفة عامة مثلا أن المنتخب الوطني قد فاز على المنتخب المصري بهدف

لصفر إثر كأس العالم لسنة 2010، بل سوف نتذكر أيضا كيف تم الفوز، وأين تم، و متى علمنا بذلك...الخ

كما أننا لن نتذكر بصفة عامة مثلا أن الرئيس محمد بوضياف قد أغتيل في لقاء أو مؤتمر كان يترأسه بل سوف نتذكر كيف تم ذلك ومتى علمنا به. ومعنى هذا أن الذاكرة الثانوية تحتفظ لنا بالأحداث المحددة التي دخلت مجال خبرتنا ومعايشتنا لهذه الوقائع العامة.

بوسعنا الآن معرفة أهمية كل من الذاكرة الدلالية والذاكرة الثانوية في فهم وتأويل النصوص.

فإذا كان اكتشاف علم النفس الحديث للذاكرة الدلالية قد شكل تحولا كبيرا، نظرا لأهمية هذه الأخيرة لدى المتلقي فان لسانيات النص بدورها قد ركزت على المستوى الدلالي للخطاب بمختلف أنواعه وأخصته باهتمام بالغ على خلاف ما كان سائدا في الدراسات اللغوية التقليدية.

ليس هذا فحسب فقد أكد علماء النفس أن "أهم عامل يحدد الكفاءة النسبية للذاكرة الدلالية هو بنية المعلومات فهناك قاعدة عامة تدل على الاحتفاظ بأجزاء من المعلومات المشتتة، ثم إعادة إنتاجها مثل الكلمات أو الجمل المبعثرة أصعب بكثير من الاحتفاظ بالمعلومات المنظمة بنيويا عن طريق النحو والدلالة ". (15)

يعتبر هذا الطرح من الأساسيات التي ارتبطت أشد الارتباط بلسانيات النص، حيث شكل الاتساق والانسجام أهم آليات البحوث النصية.إذ يختص أحدها بالعلاقات النحوية (الاتساق) ويتمظهر على سطح النص من خلال جملة من الأدوات: - الوصل، الفصل، الإشارة، الإحالة، الحذف...، والتي تعمل على تعلق النص بعضه ببعض وفق نظام عام يجمعه فيغدو واضحا، سهل الفهم والإدراك ويختص الأخر بباطن النص (الانسجام)، ويتجلى من خلال منظومة المفاهيم والعلاقات الدلالية.و بتضافرهما (الاتساق/الانسجام) يتشكل كل النص.

أما عن الذاكرة الثانوية فهي لا تقل فائدة و أهمية بالنسبة للبحوث اللسانية النفسية عن سابقتها بشكل كبير في دراسة المستوى التداولي للنصوص، وذلك من خلال الاطلاع على ظروف الإنتاج المحيطة بها أي بالسياقات الخارجية المساهمة في إنتاج النصوص وتلقيها.

كما أن ما قدمته المدرسة الجشطالتية من إضافات هامة في علم النفس وبالتحديد فيما يخص نظريات الإدراك، خدم و بصورة كبيرة لسانيات النص، فقد دعت هذه المدرسة إلى إدماج مقولات الشكل أو البنية في تأويل العالم المادي، كما في تأويل العالم الذهني وذلك بمراعاة العلاقات بين الأجزاء، كما بحثت ارتباط الشكل بالعمق. (16)

وهذا ما قامت لسانيات النص بإسقاطه على النصوص حيث درست النص باعتباره لحمة واحدة، وبنية كلية كبرى متحققة بفضل اتحاد أجزائها ببعض، فلا يمكن أن ندرس الجزء بعيدا عن الكل، أو العكس، فالعلاقات بين أجزاء النص هي المتحكم الرئيسي في تشكيله وتأويله، وبفضل هذه الخاصية (الترابط) أطلق على لسانيات النص "علم نسيج العنكبوت". (17)

إضافة إلى ذلك دعت لسانيات النص إلى ضرورة اتحاد وتضافر الشكل (البنية السطحية) بالمضمون (البنية العميقة) فسلامة أحدهما مرتبطة بسلامة الآخر، وإذا نظرنا إلى النصوص الباثولوجيا (المرضية) الصادرة عن المرضى النفسانيين كأولئك المصابين بالذهان أو الفصام (الشيزوفرانيا)، فهي تمثل مادة اهتمام لسانيات النص، لأنها تمدنا ببيانات حول الصلات بين الأبنية النصية والأبنية النفسية. (18)

كما أن فهمها وتحليلها يساعد علماء النفس في التعرف بشكل جيد على الأمراض العصبية أو المشكلات النفسية من خلال ما يخبر به المريض طبيبه النفسي المعالج الذي يعمل على كشف الأسباب و الدوافع المؤدية إلى الاختلال النفسي.

فقد ارتبط علم النفس بشكل وثيق جدا بقضايا اللغة و الإدراك، فبفضله أصبحنا قادرين على كشف ماذا نعني بكلماتنا، و كيف تختزن هذه الكلمات وكيف يعاد إنتاجها مرة أخرى، حيث زودنا بمعلومات كثيرة عن عقولنا، وكيفية إدراكنا لما حولنا، وكان لكل ذلك دور كبير في تقدم خطوات البحث النصي إذ استفاد منه (علم النفس) أيما استفادة خاصة فيما يتعلق بكشف كنه النصوص ومشكلات المبدعين (المنتجين) وموقف المتلقين (القراء)، فأمد الباحث في"البلاغة والأسلوبية والنقد النصي، بمؤشرات هامة حول الظاهرة الأدبية التي لن تكون أشد تعقيدا ولا خصوصية من العالم الداخلي للنفس الإنسانية التي تبدعها و تتلقاها". (19)

د- لسانيات النص وعلم الاجتماع:

يمثل علم الاجتماع ميدان مركزي في الدراسة اللسانية النصية، فاللغة ظاهرة اجتماعية بامتياز وهذا ما أقره واتفق عليه العديد من علماء الاجتماع أمثال أيميل دوركايم وبورديو وفرناند دي سوسر وأنطوان مييي ونوام تشومسكي وغيرهم فاللغة " توجد مستقلة عن كل فرد من الأفراد الذين يتكلمونها وعلى الرغم من أنها لا تقوم بمعزل عن مجموع هؤلاء الأفراد، فإنها مع ذلك خارجة عن الفرد من خلال عموميتها". (20)

وتظهر خاصيتها الاجتماعية أثناء عملية التواصل التي تتم من خلال تفاعل اجتماعي بين المرسل والمستقبل بواسطة نصوص وخطابات، فنحن عندما نتكلم ننجز شيئا أوسع من مجرد التكلم والتعبير عن معارفنا ورغباتنا وأحاسيسنا، وإنما نحقق بهذا التواصل حدثا اجتماعيا فاستعمالنا للغة لا يعني انجاز فعل مخصوص فقط بل هو جزء من عملية تفاعل اجتماعي.

إن بناء نص ضمن سياق الاتصال لا يكون متأثرا فقط بمعرفة الفرد بوظائف النص، وإنما بمواقف أفراد آخرين وتصرفاتهم، فالمؤسسات وطبقات المجتمع تتواصل جماعيا عن طريق أفراد من خلال إنتاج نصوص يساهمون في تشكيلها، وهذا ما يطلق عليه علماء الاجتماع بالإعداد الاجتماعي للنصوص، (21) فالمكان أو الوظيفة التي يشغلها الفرد داخل هذه الأبنية الاجتماعية تظهر عبر تصرفهم اللغوي.

فالممارسات اللغوية يمكن أن يقوم بها الفرد مع الجماعة عبر أفعال كلامية: كالأمر، النهي، الطلب، إصدار الأحكام...

و يمكن أن توجه للفرد أو إلى المجموعة أو إلى جمهور واسع، و هنا يأتي دور لسانيات النص التي نقوم في جانبها التداولي بدراسة الأفعال الكلامية والسياقات الداخلية والخارجية، فضلا عن دراسة العلاقات بين البنية المحددة للنص وبين تأثيراتها على المعرفة والرأي والمواقف والتصرفات الخاصة بالأفراد أو المجموعات أو المؤسسات حيث توضح لنا (لسانيات النص) كيف يمكن لنص ما أن يؤثر على الآخرين (المتلقين) بواسطة مضمون معين يعبر عنه بطريقة أسلوبية محددة، وعمليات بلاغية محددة، لتكشف لنا السر وراء تبني أفراد أو مجموعات لأفكار ومضامين معينة من خلال أبنية نصية خاصة، قد تتحكم في تشكيل رغباتهم وقراراتهم وتصرفاتهم، وعلى سبيل المثال يمكن لنص دعائي محدد أن يوجه تصرفنا في شراء منتوج ما أو العكس،كما يمكن لخبر في الجريدة أن يتحكم في ردود أفعالنا تجاه موقف أو شخص معين مما قد يعدل موقفنا الانتخابي.

باختصار إن لسانيات النص تساهم من خلال دراستها وتحليلها لما تنقله النصوص في فهم ذلك التحول في العادات والتقاليد والقيم في مجتمع من المجتمعات .

وبما أن المجتمع يتشكل من أفراد ومؤسسات فهي تقوم بإنتاج نصوص مختلفة باختلاف كل مؤسسة، فلا شك أن مؤسسة منتوجات كيميائية أو طبية تنتج نصوص مختلفة عن النصوص التي تنتجها المساجد أو المحاكم، ولا يمكن الاختلاف في المضامين فحسب، بل في طريقة العرض ونوع الأسلوب، وباقي العمليات البلاغية الأخرى، والعلاقات بين الأفراد داخل هذه المؤسسات تظهر بوضوح عبر أنواع النصوصالتي تنتجها، وأشكالها ومضامينها، ومن خلال كل ذلك يمكننا تحليل تلك المؤسسات الاجتماعية وتحديد هويتها ودراستها. (22)

" فوظيفة لسانيات النص في إطار علم الاجتماع تكمن في حل مشكلات من هذا النوع ولا عل هذا هو المجال الذي يمكن أن تطبق فيه باقتدار. (23)

لسانيات النص والترجمة:

تعتبر الدراسات اللغوية الركيزة الأساسية والعمود الفقري لعملية الترجمة و التي تمثل في جوهرها تغيير في الشكل(Form)، وعندما نتكلم عن شكل لغة ما فإننا نشير إلى الكلمات والعبارات وأشباه الجمل والفقرات وأدوات الربط.. أي ما يسمى بالبنية

السطحية للغة، ذلك الجزء البنيوي الذي يمكن رؤيته فعليا عند كتابة لغة ما، أو سماعه عند التحدث بها، وفي أثناء الترجمة يتم استبدال شكل لغة المصدر بشكل اللغة المستقبلة (الهدف). (24)

لذا فنحن لا نغالي إذا قلنا إنّ الفضل كل الفضل فيما وصلت إليه الترجمة من ازدهار ورقي في مجال التنظير والتطبيق على السواء يعود إلى تقدم اللسانيات بمختلف مستوياتها الصوتية، الصرفية، التركيبية، الدلالية...، وإلى نشأة لسانيات النص كعلم مستقل، يهتم بدراسة مختلف أنواع النصوص وسياقاتها وكل ما قد يساعد في عملية فهمها وتأويلها حيث يرى دي بوجراند أن للسانيات النص الإسهام الكبير في دفع حركة الترجمة، بعكس اللسانيات التقليدية التي تعنى بالنظم الافتراضية، لأن الترجمة من أمور الأداء وليس امتلاك النحو و المعجم فقط كافيا للقيام بالترجمة. (25)

حيث إن لب الترجمة هو نقل معنى اللغة المصدر إلى اللغة المستقبلة، وهذا يتم بالانتقال من شكل اللغة الأولى إلى شكل اللغة الثانية عبر البنية الدلالية، فالمعنى هو الذي يتم نقله، لذا لا بد من الحفاظ على ثباته، فالمتغير الوحيد هنا هو الشكل، فالترجمة إذن لا تتضمن دراسة الوحدات المعجمية والبني النحوية فحسب وإنما يضاف إلى ذلك السياقات الخارجية والمقام الاتصالي وكل ما من شأنه أن يساعد على فهم النص المترجم. " فعلى المترجم أن يترجم المعنى العام للغة وروحها، لأن الترجمة الحرفية مثارا للسخرية". (26)

وبالتالي ترجع إشكالية الترجمة إلى كل تلك الفرو قات والمستويات اللغوية للنصوص المترجمة، التي ينبغي للمترجم أن يحتاط لها أثناء ترجمته أي إلى نوعية التواصل الذي يريد النص أن يبلغه لنا ووظيفته في البنية الكلية، المحققة عن طريق الترابط النصي، فالنص كما يقول تودوروف يتحدد من خلال العلاقات ذات الكلمات الصانعة والمبنية للعمل الأدبي فالترابطات هي السبيل إلى تحليل النص وممارسة قراءته، (27) ثم إن الترجمة في حد ذاتها، ما هي إلا قراءة لنصوص بغير لغتها، وكل قراءة تنطوي على عملية تفكيك وإعادة بناء، فلا يمكن للمترجم أن يقوم بعمله ما لم يدرك هذه الترابطات التي توفرها له لسانيات النص بمختلف أنواعها (الداخلية والخارجية).

وإذا تأملنا مليا فإننا سنجد أن اعتماد لسانيات النص على الترجمة كمجال للتطبيق له الأثر الايجابي والفائدة المشتركة فبفضل لسانيات النص زودت الترجمة بما تحتاجه من أدوات إجرائية في قراءة النصوص وفهمها ومنه ترجمتها حيث مكنتها من القيام بمهامها على أحسن وجه لتكون في النهاية مبنية على أسس علمية تحكمها قوانين وقواعد ونظم لمنهج محكم ودقيق، جاعلة منها عملية تواصلية علمية حينا وفنية أحيانا لتكون كما يقول جورج مونان:"علم وفن مبتعدة كل البعد عن كونها مجرد عملية نقل المعلومات بواسطة اللغة". (28)

وعليه فان الترجمة عملية لسانية بحتة كما يذهب إلى ذلك المنظر الروسي فاديروف واللغوي جورج مونان اللذان اعتبرا أن الترجمة دائما وأبدا عملية لسانية وأن اللسانيات (بصفة عامة) القاعدة الأساسية لكل عمليات الترجمة. (29)

فعلاقة الترجمة بلسانيات النص من الأمور البديهية و الضرورية في الوقت ذاته، فكلاهما يتعامل مع اللغة كمنظومة رمزية وكتركيب ودلالة.... وإن اختلفت مستويات التناول، فإذا كانت الترجمة هي انتقال المعنى من لغة إلى أخرى، أو باصطلاح علماء الترجمة من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف، فان لسانيات النص تتمثل في وصف وتحليل هذا التحول الجاري بين النص الأصلي والمترجم كونهما حدث لساني، لذا فان عدم التمكن من الآليات اللسانية النصية وأدواتها الإجرائية، قد تؤدي – وفي كثير من الأحيان– إلى ضبابية في فهم النصوص ومنه في ترجمتها.

إن التمازج بين لسانيات النص و الترجمة عمل على تحقيق أفضل الترجمات، وهي تلك التي تنسي القارئ أنه يقرأ نصا مترجما.

كما أنه و بفضل الترجمة استطاعت لسانيات النص أن تلج مختلف النصوص، وتنفتح على العديد من دروب المعرفة، حيث فتحت لها أبواب مختلف اللغات و التخصصات لتكون (الترجمة) بذلك أحد أهم العوامل المساعدة على جعل الدراسة اللسانية النصية دراسة عبر تخصصية.

الخاتمة

لعلها تجلت لنا الآن السمة الجوهرية الفارقة بين لسانيات النص والدراسات اللغوية التي سبقتها، حيث تجاوزت لسانيات النص المهمة التقليدية في البحوث اللسانية، من حيث عنايتها بالمستويات اللغوية فحسب، وانغلاقها على ذاتها.فقد تعدت لسانيات النص تلك النظرة الضيقة إلى آفاق ومجالات أرحب حيث تتطلب عملية تحليل النصوص تداخل معرفي مع علوم وتخصصات أخرى، فكلما تشعبت منابع معرفتنا وتعددت كلما كانت لنا القدرة أكثر على تفجير طاقاتها(النصوص) وكشف مدخراتها، وتعدد قراءتها والتلذذ بمتعة السفر في غياهبها.

لذا فالأخطبوطية التي اتصفت بها لسانيات النص مكنتها من أن تجمع بين مختلف العلوم المبعثرة والمتباعدة محاولة استيعابها وفق رؤيتها الخاصة، دون أن تنمحي فيها أو تنطوي تحت لواء أحدها، محافظة بذلك على خصوصيتها وخصوصية تلك العلوم والمعارف،و ما ذكرنا بعضها: الأدب، البلاغة، علم النفس، علم الاجتماع، الترجمة. إلا محاولة منا إماطة اللثام عن أغلب التداخلات الموجودة بينها وبين لسانيات النص التي استطاعت و بجدارة أن تدرس النصوص دراسة إبداعية.

هوامش المادة العلمية

1- Weinrich Harold, Le Temps, Edition du Seuil, Paris, 1973.p 60.

2- حسن خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف،الجزائر، ط 1 ، 2007، ص23.

3- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان مصر، ط01، 1996، ص112.

4- حسن خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائيـة الدال، ص 20.

5- عثماني الميلود، شعرية تودروف، عيون المقالات، الدار البيضاء "د ط" 1990، ص26.

6- حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائيـة الدال، ص ص 24-25.

7- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 323.

8- حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ص 24.

9- صلاح فضل، بلاغة و علم النص، ص ص 323-324.

10- هنريش بليث، البلاغة و الأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص ، ترجمة: محمد العمري: منشورات سال، فاس المغرب (د ط)، 1989، ص 12.

11- صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 326.

12- ينظر فان دايك، النص بني ووظائف مدخل أولي إلى علم النص، ترجمة: منظر عياشي،المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 1 ، 2004 ، ص 138.

13- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص ص 29-30.

14- المرجع نفسه، ص ص 37-38 .

15- المرجع نفسه ، ص ص 36-38.

16- المرجع نفسه ، ص 37.

17- رولان بارث، لذة النص، ترجمة: فؤاد صفا و الحسين سيحان، دار توبقال للنشر المغرب، ط 01، 1988، ص62.

18- حامد أبو احمد، الخطاب والقارئ، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة، مركز الحضارة العربية، القاهرة، (دط)، 2003، ص 225.

19- فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات ، ترجمة: سعيد حسن بحيري ، دار القاهرة للكتاب ، القاهرة ، ط1، 2001، ص 24.

20- لويس جون كالفي علم الاجتماع اللغوي ، ترجمة محمد يحياتن دار القصبة للنشر ، الجزائر 2006 ، ص 11.

21- حامد أبو احمد، الخطاب والقارئ، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة، مركز الحضارة العربية، القاهرة، (دط)، 2003، ص ص 218-219 .

22- ينظر فان دايك، علم النص، ص 27.

23- حامد أبو أحمد، الخطاب والقارئ، نظريات التلقي وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة، مركز الحضارة العربية، القاهرة، (دط)، 2003، ص 219.

24- مالدريد لرسون ، الترجمة والمعنى ، دليل التكافؤ عبر اللغات ترجمة : محمد حلمي هليل، مجلس النشر العلمي الكويت، ط1، 2007 ص13.

25- أحمد عفيفي، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة، ط1، 2001، ص41.

26- مالدريد لرسون، الترجمة والمعنى دليل التكافؤ بين اللغات، ص 45.

27- فينوغرادوف، المضمون والشكل في العمل الأدبي، ترجمة هشام الدجاني، الدار الوطنية للتوزيع، دمشق ص55.

28- مطهري صفية، الترجمة والدلالة، أهمية الترجمة وشروط إحياؤها، المجلس الأعلى للغة العربية ، دار الهدى الجزائر،2007 ص458.

29- حسن خمري، الترجمة والسميائية، أهمية الترجمة وشروط إحياؤها المجلس الأعلى للغة العربية ، دار الهدى الجزائر،2007 ، ص ص121-126.